مناظرة بين العلم والجهل

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد حَمْدِ مُلْهِم الصوابِ، وكاشفِ الأوصاب، والصلاةِ الكاملةِ، والتحياتِ المتواصلةِ الشاملةِ، على سيدنا ومولانا محمدٍ وآلِهِ وصحبه والفئةِ العالمةِ العاملةِ، فقد اقتضى الحالُ، أن يقع بين العلم والجهل مناظرةٌ وجدالٌ[1]، فاجتمع قومٌ، وعينوا لذلك يوم.

فقام العلمُ، وقد شاخ وأسَنَّ، وأدركه الضعفُ والوهنُ، بادي الإعواز، يتوكأ على عكاز، في رثَّة حال، وأطمار وأسمال. فبَسْمَل وحَمْدَل، وحَسْبَل وحَوْقَل. وصلَّى وسلَّم، على خيرِ مَنْ عَلِمَ فعلَّم، وقال:

يا جهل، ما أنت لخطابي بأهل، ولا جدالي عليك بسهل؛ يا ميتَ الأحياء، ويا قليلَ الحياء. ويا سببَ تفليسِ إبليس، ويا حلية كلِّ دنيءٍ وخسيسٍ. كيف تكون لي أنت المجاري؛ والعلم صفة الباري، وميراث الأنبياء، وورد في فضله ما لا يحصى من الآيات والأنباء. ويكفيك لو كنت من قوم يفهمون ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

---

(١) طُبعت هذه المناظرة في المكتبة السلفية بالمدينة المنوَّرة سنة ١٣٨٥هـ، وهي الطبعة الثانية لهذه الرسالة.

وجاء في السنَّة: «العالم والمتعلم والعلم في الجنة».

وأنت يا جهل بسيطُك عَدَمٌ، ومركّبُك موجودٌ لا يثبت له قدمٌ. ومن معلوماتي التفسير والحديث، المعظمان في القديم والحديث، وعلم التوحيد الذي هو لِبابِ الجنَّة إقليد. وإليَّ ترجع الأربعة أركان التي بها شرف الإنسان: علوم الأديان، وعلوم الأبدان، وعلوم الأذهان، وعلم اللسان.

ويكفي الجهلَ قبحُ وسمه، ولكل مسمًّى حظٌّ من اسمه. يخبطُ خبطَ عشواء، ويركب متنَ عمياء. ويتصور الأشياءَ على خلاف ما هي عليه، وكل شرٍّ في الدنيا منسوب إليه.

وبالعلم تدرك المراكب الفاخرة، وتنال سعادة الدنيا والآخرة. يزيد بالإنفاق، ووقع على فضله الاتفاق. معظّم في كل ملَّة، وبه تقوم قواعد كل نحلة. بنوه السادة، ولأهل الدنيا والآخرة قادة؛ مذاكرتهم زيادة، ومجالستهم عبادة. ونعم الأنيس في الوحدة، والمعين على الشدة والزاد والعُدَّة. يستغفر لأهله كلُّ شيء حتى حيتان الماء، ووحوش البر وطير السماء.

والعلم محبوب طبعًا، معظم عادة وشرعًا. لا تلحقه الآفات وأهله أحياء وهم رفات: [من الطويل]

أخو العلمِ حيٌّ خالدٌ بعدَ موتِهِ
وأوصالُه تحتَ الترابِ رَميمُ

وذو الجهل مَيْتٌ وهو ماشٍ على الثرى
يُعَدُّ مِنَ الأحياءِ وهو عَديمُ

وكفاه شرفًا: أن كلّ أحدٍ يدَّعيه، وكل ذي فطرة سليمة يقصده وينتحيه. وأنه يُنالُ بالهمم لا بالرمم. ولا يُحازُ بنَشَبٍ[1]، ولا يُورَثُ بنسب. يستوي فيه السُّوقَةُ والملوك، والغني والصعلوك، والحر والعبد، والشريف والوغد. يُدرَكُ بالاجتهاد والجِد، لا بالاتكال على الأب والجد.

وأنت يا جهل شناعة وأيّ شناعة، وخسارة للحياة وإضاعة. بَنُوك بهائم، وإن لبسوا العمائم. وأنعام، وإن غُذُوا بالإنعام. ومعشر طَغَام[2]، وإن تمتعوا بفاخر الثياب وألوان الطعام. وشرار، وإن تشدّقوا في الكلام. ورُعاع، وإن أحرزوا المتاع.

يا جادعَ مارنِ[3] الشَّرَف، يا مفتاحَ بابِ التهوّرِ والسَّرَف، يا عارَ الخَلَف على السَّلَف. يا هادم البيوت، يا أوهى حُجَّةً من نسج العنكبوت. يا مفسد العبادة، يا سيِّىء العادة، يا قليل الإفادة، يا مردود الشهادة. يا مُتْلفة الأموال، يا متناقض الأحوال، يا مُسَوِّد الأنذال، يا مُقَدِّمَ السّفلة والأرذال. يا عيبة العيب، ويا مثار الحيرة والريب.

بأي لسان أستوعب معايبَك؟ أم بأي بيان أستوفي مثالبك؟ وهل كالجهالة عمىً وعمَه؟ أو مثل الجاهلية سفالة وسَفَه؟ ألا يرى مجاهل المسالك، معاطبَ ومهالك؟ ومن سلك السبيل بالعلامة، فاز بالنجاة والسلامة. ألستَ صفة كل شرير ومارق؟ ومكسب كل متلصِّص وسارق؟ وإن نفق لك سوق، فذاك لعمري سوق الفسوق. وإليك ينتسب كل قَمَّار

---

(١) النَّشَبُ: المال والعقار.

(٢) الطَّغام: أرذال الناس وأوغادهم.

(٣) المارِن: الأنف، أو ما لان من طرفه.

وخَمَّار، ومُغْنٍّ وزمّار، ومحتال وغادر، ومنجم وساحر، ومشعبِذ[1] وكاهن، وخليع وماجن.

وإن فخرت بالملابس والمآكل؛ فذاك حظُّ المزابل. وأنشدوا:

[من الكامل]

ولقد سألتُ الدارَ عَنْ أخبارِهم فَتَبَسَّمَتْ عجبًا ولم تُبْدِ
حتى مررتُ على الكنيفِ فقال لي أموالُهم ونوالُهم عندي

أو بالخيل والليل فلأمِّك الويل. فكلُّ ما أضيف لك فهو حقًّا للشيطان، وليس له على عباد الله المخلصين من سلطان.

وإن عيَّرتَني بالفاقة فذاك من الحماقة؛ فالفقر شعار الصالحين الأخيار، وحلية عباد الله الأبرار. فاقعد عن المكارم؛ فإنك أنت الكاسي الطاعم. والبِطنة تذهب الفِطنة. والتُّخَم وَخَم. وأصل كل داء البَرْدَة[2]؛ قضية مسلَّمة. والمعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء؛ حكمة نبوية معظمة. وإن خدمتَ الأشباحَ الفانية، فأنا أخدم الأرواحَ الباقية. وإن قَصَرْتَ لذَّتَكَ على المباني، فقوت الروح أرواح المعاني.

وأبنائي الأكياس، خلاصة الناس. هداة العباد، ومصابيح البلاد. زينة المحافل، ورؤساء الجحافل. أيامهم بالمحاسن معمورة، ومساعيهم في الصالحات مشكورة. حياتهم طيبة بالقناعة، ولهم في الدنيا المكانة والطاعة، وفي الآخرة الحسنى والشفاعة: [من البسيط]

تلكَ المكارمُ لا قَعْبانِ[3] مِنْ لبنٍ شِيبا بماءٍ فعادا بَعْدُ أبوالا

---

(١) المشعبِذ: المشعوذ.

(٢) البَرْدة ويُحرّك: التُّخمَة. القاموس (برد).

(٣) القَعْب: القدح الضخم.

فمن أين لك فَخاري؟ وأنَّى تساميني في طِيب أصلي وكَرَم نِجاري[1]؟

فمن أبنائي مفسِّرون وحُفَّاظ، وصوفية ووعَّاظ، ومتكلِّمون وفقهاء، وأصوليون وأدباء، ومؤرِّخون وأطباء، ومناطقة وحكماء، وفَرَضِيّون وحُسَّاب، وبُلغاء وكتَّاب، ومنجِّمون وجغرافيون، وأهل هيئة ومهندسون، ومِساحة وسياسة، وعلم حروب وفراسة. إلى غير ذلك مما لا أكاد أحصيه، ولا أقدر أستقصيه. انظر: كشف الظنون عن أسامي الكتب وخواصِّ الفنون.

ومنهم واضعو العلوم، ومستنبطو الحدودِ لها والرسوم. وضع النحوَ بابُ مدينة العلم الإمام[2]، والحديثَ ابنُ عبد العزيز المجدِّد الهُمام، والتفسيرَ مالكٌ، والفقهَ أصحابُ الأربعةِ كذلك، وأصولَ الفقهِ الشافعيُّ ابنُ إدريس، ومسائلَ الكلام الشيخُ الأشعري الرئيسُ، والفرّاءُ التصريفَ، وابنُ المُعْتَزِّ في البديع اللطيفَ، والعروضَ الخليلُ، وعبدُ القاهرِ الجرجاني علمَ البيانِ الجليل. إلى غير ذلك مما ابتكره الأعلام، وفتحَ به العلاَّم، واعترف فيه الأممْ بمزية الإسلام.

وكم لي من شمس وبدر، وفخر وصدر، وضياء ونجوم، وشُهُب لشياطين الجهل رُجوم، وغياث ومعين، وناصر وأمين، وبهاء وجمال، وبرهان وكمال؟ وكم لي من حُجَّة، ووضوح مَحَجَّة؟ أما ترى قوةَ عضدي، وطالعَ سعدي، وشهامةَ سيدي، وكرمَ مجدي؟ إلى ما لا يُحصى من أبنائي الأَنجاب، الذين تشرَّفوا بسَنِيِّ الألقاب.

---

(١) النِّجار: الأصل والحسب.

(٢) أي الصحابي الجليل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

أما تخشى يا جهلُ بأسَ حُماتي، وضربَ أكابرِ نُحاتي؟ وما للعروضيين من التفعيل والتقطيع، وللصرفيين من تنويع الأفعال والتفريع؟. ألا تخاف أحكامَ فقهائي، وأن يقْضوا عليك بمرِّ قضائي؟. ألا تهاب تجريحَ رواة أنبائي، وصعوبةَ تجريح أطبّائي؟. ألا تفزَعُ من كلام المتكلِّمين، وأن يكونوا لعرضك من المُكَلِّمين[1]؟ وقد وجَّه أهل الأصول إلى صوبك السهام والنصول وأين تفرّ من عكوس المناطقة، وقضاياهم الكاذبة فضلاً عن الصادقة؟!.

ألا تتّقي تمزيقَ ألسنة شعرائي، وكنايةَ بلغائي؟ وتشبيهاتِ البيانيين أن يُلحقوك بباقل ومادر، وتلميحات البديعيين أن يُلمحوا لك بالبيت النادر؟ إلى ما لا يأتي عليه الحصر، ويتجدد مع كل أهل عصر.

ولا تنظر إلى ما رماني به الدهر من الكساد؛ فإنما ذلك لغلبة الفساد؛ فالدهر مغرى بحرمان الأفراد، ومساهلٌ لكل جاهل، وموافق لكل منافق. فقد قال الزمخشري العلاَّمة محمود، الذي علمه لولا الاعتزالُ محمود: [من الطويل]

وعانَدني دَهْري وساعَدَ مَعْشرًا ... على أنَّهم لا يعلمونَ وأعلَمُ
ومُذْ أفلحَ الجُهَّالُ أيقنتُ أنني ... أنا الميمُ، والأيامُ أفلحُ أعلمُ[2]

فقد كانت أسواقي نافقة، وأعلام عزِّي في الخافقين خافقة. فكم

---

(١) اسم فاعل من كلَّم بمعنى جرَّح.

(٢) الأفلح مشقوق الشفة السفلى، والأعلم مشقوق الشفة العليا، ومن كان كذلك، لم يستطع النطق بحرف الميم لأنه حرف شفوي، يريد الزمخشري أن زمانه لم يعرف قدره.

عالمٍ أصلحَ حرفًا فأخذ عليه كذا وكذا ألفًا. وكم أُجيزوا بالدرر على القصائد الغُرَر. وكم تمتَّعوا بالخِلَع البهية، والمآكل الشهية، والمراكب الهنية، والفرش الوطيّة. والمساكن المُطِلّة، والضياع المُغِلَّة. والكواعب الحِسان، إلى سائر ما أنعم به عليهم أهل الإحسان.

ألا تَرى إلى ما كنتُ عليه أيامَ الدولة الأموية من الحرمة والاعتزاز، بالشام واليمن والحجاز؟ وما حصل لي من الجلالة ببغداد والعراقين وخراسان وما وراء النهر أيام العباسة، وما كان لي من الإقبال بمصر وسائر ديار الإسلام أيام الدولة التركية وأيام الجراكسة؟ وخصوصًا بالمساجد الثلاثة التي تُشَدُّ لها الرحال؛ فكم كان فيها من فحول رجال!!

وصولتي ببلاد الروم صدرَ الدولة العثمانية. ومَنْ شكَّ فلينظر الشقائقَ النعمانية. وبإفريقِيَّة أيام الأدراسة والأغالبة، وبالعُدوة الأندلسية أيام الدولةِ المروانية القاهرة الغالبة. وما قصر فيَّ القيامُ في طوائف، أيامَ ملوكِ الطوائف. ونُصِرتُ بالأبيضِ والأسمر، مدةَ أيامِ بني الأحمر. ولم تزل لي بتلك العُدوة فخامة، إلى أن قوّض الإسلام من الجزيرة خِيامه. وعظُمَ شأني بمراكش والبيضا، أيام ابن تاشفين وابنه علي الرضا. وكنت بالمغربين منقطع القرين، أيام الموحِّدين وبني مَرين. ونُصرتُ بالهادين المهديين من الوطاسين والملوك السعديين. ولم أضِع بتلمسان، أيام بني زيان، ولا ببجاية، كما في عنوان الدراية. وكذا بتونس والجزائر وزواوة، ونِعم العِدلانِ ونِعْمَتِ العَلاوة. فلتبكِ على سلفي الصالحِ المنابر، والأقلامُ والمحابر.

أمَّا الآن، وقد كان ما كان، وذهبت الجماعة، واقتربت الساعة، فلا يسعني إلَّا الرضا، والصبرُ على مُرِّ القضا، والتقلّب على جمرِ الغضا،

فالشيء ينتهي إذا بلغ غايةَ حَدِّه، ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٢].

* * *

فلمَّا فرَغ العلمُ من القيل، وسمع الجهلُ ما فيه قيل؛ أبرقَ وأرعد، ووعَد وأوعد، ونهضَ في أكملِ شارة وأحسن بزّة، وقد انتفخ من الكِبْر وأخذَته العزّة، وعلى رأسه التاجُ والعَلَم، وفي خدمته السيفُ والقَلَم؛ في عتوِّ تيمور أو جنكيز، وتعاظُم ممزِّق الكتابِ النبويِّ كسرى أبرويز ــ أما القيصر فما فرَّط في حفظ الكتاب المعظّم ولا قصَّر ــ فبربر وبرطم، وزمجر وجَرْسَم[1]. وقال:

يا عِلْم، ما هذا الإفراط في الظلم؟! أتكافحني في إقبال دولتي؟ وتنافحني في أيام صولتي؟! أما ترهَب بأسي وشدَّةَ شوكتي؟ وبيدي المناصب، وأنا الرافع والناصب. والمتصرف في الحكام، وإليَّ مرجع الأحكام، والنقض والإبرام، والقهر والإلزام!.

وإن كنتُ قِدْمًا أسكن الأطراف، وأستوطن الكُفور[2] والأرياف، فالآنَ قد ملكتُ الأمصار، وملأتُ الأقطار، وخفقَتْ في الخافقين بنودي، وطبَّقت المشارق والمغارب جنودي. فأنَّى تشقُّ غباري؛ وأنا الأصل وأنت الطاري؟ ألم تسمع ما يتلون: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

---

(١) جَرْسَمَ: أحَدَّ النظر. القاموس (جرسم).

(٢) الكُفور جمع كَفْر وهو القرية، ومنه الحديث: «لا تسكن الكُفور، فإن ساكن الكفور كساكن القبور».

أليس نقصًا فيك ما قال عنك الإمام: إنك لعُسْرِك لا تُحَدّ، وأن غالب حدودك يُنقض ويُردّ؟! ومن الحَور[1]، نقض أشهر حدودك بالدَّور. ومن سعادة جَدّي[2]، سلامة حَدّي، وصحة عكسي وطردي. وإن كان بسيطي عدمًا يزول؛ فمُرَكَّبي صعب لا يتغير ولا يحول. شديد الرسوخ، سيما في أبناء البيوت والكثير من أولاد الشيوخ.

ومن أين لك على مقاومتي المقدرة؟ وأنت قليل الأنصار وعديم الميسرة. وأبنائي الأغنياء والأمراء، وأبناؤك الضعفاء والفقراء. يا صفر الراحة، يا من حكى مسلمٌ عنه في صحيحه أنه لا يُنال بالراحة. يا حليفَ الجوع، يا منافي الهجوع. يا مُضنيَ الأبدان، يا مصفِّرَ الألوان. يا قليلَ الحظوة، عند أهل السطوة. يا مسوِّدَ الموالي، ورافعَهم على الأعالي. يا قليل الجَدْوَى، يا داعيةَ الكِبْر والدعوى.

أتفخر ببنيك الشُّعثِ الغبر، الذين ليس لهم عند أهل الدنيا اعتبار ولا قَدْر؟! إن خطبوا رُدُّوا، وإن عُدَّ الناس فما عُدُّوا. وإن غابوا فما فُقِدوا، وإن حضَروا فكأنّهم ما وُجِدوا. ما لهم شارة، ولا إليهم إشارة، ولا يُرجع إليهم في استشارة. وإن نَطقوا أُسكتوا، وإن صَدقوا أُبهتوا. عاقلُهم حِلْس[3] البيت، وحيُّهم بمنزلة المَيْت. لا يطمعون في نيل الرُّتَب، وسُكنى غالبهم الزوايا والتُّرَب. قلوبُهم منكسرةٌ للغربة، وهم حلفاء كل

---

(١) الحَوْر: النقص.

(٢) الجَدّ: الحظ.

(٣) الحِلْس: ما يبسط في البيت من حصير ونحوه تحت السجاد وكريم المتاع. يقال: (هو حِلْسُ بيته) أي لا يبرحه.

محنةٍ وكُربة. لا ينفكُّون عن تألُّم، ويتجرَّعون كاساتِ ذُلِّ التعلُّم. عيشُهم سَظَف، ولا يأكلون إلاَّ على ضَفَف[1]، وشربهم من القداح نُطَف[2]. لباسُهم أَسمال، وفراشُهم تراب ورمال.

فهذا غالبَ حال بنيكَ يا مُكِدَّ الطِّباع، ويا حليةَ أهل العجز والضَّياع. مدارسُك دوارس، وأذقانُ حامليك نواكس. ليس على كلامهم مُعَوَّل، وهل عند رسمٍ دارسٍ من مُعَوَّل.

أما أنا فقولي المشهور، وأبنائي الجمهور من الأحداث والرجال. وربَّات الحِجال. وإن ماتَ عالمٌ فتلكَ ثُلْمةٌ لا تنسد، وفائتٌ لا يمكن أن يُستَرَد. بشهادة: ﴿نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ [الرعد: ٤١]، فألق استماعًا، وبما صحَّ في الحديث الشريف: «إن الله لا يقبضُ العلم انتزاعًا». وإن هلك جاهلٌ خَلَفَه ألفٌ، بشهادة ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

هذا، وأبنائي المترَفون والمنعمونَ، والقومُ الذين هم في العيون مُعَظَّمُونَ. يتمتعونَ بفاخِرِ الأكل واللباس، وسواءٌ عندهم ما لا بأسَ به وما به باس. فكم أجروا في الهوى أفراسًا، وزينوا ولائم وأعراسًا. وعمروا القهاوي والحانات، وملؤوا الإصطبلات والخانات. ولهم المعازفُ والعيدانُ، والمغنّون والقِيانُ. ولهم الليل، وصهوات الخيل. وهم الحماةُ والكُفاةُ، ولهم المكَيِّفات والكافات. وبأيديهم المتاجرُ والأسواق، وإليهم الأرزاق عفوًا تساق. وهم القومُ كلُّ القوم، أنفقوا بضاعة الأعمار في الشَّبع

---

(١) الضَّفف: كثرة الأيدي على الطعام.

(٢) النُّطَف: قليل الماء.

والنوم. ينامون الصبحة، ويرتكبون كلَّ شيء لا يخافون قُبحه. أبناء الغفلةِ والكسل، وهمُّهم العسيلةُ[1] والعسلُ. يحبون العاجلةَ، ولا يتفكرونَ في الآجلة. لا يعرفون غيرَ هذه الدار، ويقولون إلى اللذات البدارَ البدار. إلى أن تأتيهم النقلة، على حين غَفلة. ورحمةُ الله مِن وراء ذلك لمن مات على الإيمان، فإنه جلّ وعلا هو الرحيم الرحمن.

وأنت يا علمُ تضني أولادكَ بذكر الوعدِ والوعيد، والنظر في حال الشقيِّ والسعيد. واحتجاجُكَ بقضية إبليس لو كنت ممن يتحقق، فإنه كان عالمًا غيرَ موفّق. والذي ما خصَّ بَلْ عم، قضيةُ ابنِ عوراء بلعم. فأصحّ القول فيه: أنه عالم سفيه. والعلم يهتفُ بالعمل، فإن أجابه أقام وإلَّا ودَّع وارتحل.

وليس بين العلم والعمل ملازمة، فلا يصح لك في هذه النزاعُ والمخاصمة. فكم عالم زاغ في العمل والعَقْد[2]، وراغ[3] في جميع أحواله عن سبيل القصد. وكثير من أبنائه ذوو زندقة وإلحاد، ومنهم مَنْ يقول بالحلول والاتحاد. ومِنْ شُبَهِ ما يدَّعيه نَجَمَ الرَّفضُ والاعتزال. ومن فساد نظرهم تَشَعَّبَتْ سائر فِرَقِ الضلال. والغُمر الجاهل، عن هذا كله ذاهل. وجهلاءُ الأعراب، أقربُ في الجاهلية للإسلام من أهل الكتاب. فلذا دخلوا في الدِّين أفواجًا، وما أطالوا عنادًا وحجاجًا. ولم يؤمن من أهل الكتاب إلَّا النادرُ الفذّ، وما قلّ وشذّ. وانظر إلى الترك والأكراد، كيف بادروا للانقياد إلى الدين بلا كبير عناد.

---

(١) العُسَيلة: حلاوة الجماع.

(٢) العَقْد: العهد.

(٣) راغ: مال وحاد.

وما عيَّرت أولادي به يا ذا البركة، من اللصوصية والسرقة والشعبذة والمجانة وما معها فتلك أوصافٌ بيننا مشتركة، يشهد لي ولك العِيان، وليس بعد العِيان بيان.

وليس كلُّ معلوماتِك شريفة، بل منها الدنيئة الخسيسة السخيفة. ألا ترى الفلسفة، وتلك المُضِلَّة المُتلِفة؟. والنجومَ والطلاسم، والأوفاق[1] والعزائم؟. وعلم جابر الكاسر، الغير الجابر؟. والعلومُ الشريفة أحوالُها في وقتنا هذا ضعيفة؟.

هـذا التفسيرُ، فأيـن محـرِّروه؟ وهـذا الحديث، فأين مقرِّروه؟ وأين مَنْ يعرف موضوعـه، ويميز صحيحـه وحسنه وضعيفه وموضوعـه؟ وهذا التصـوف، فأيـن زُهَّـاده؟ وهـذا منهـل المعارف، فأين وُرَّاده؟ وهذا الفقه، فـأين مُتقنوه؟ وهـذا الأصول، فأيـن محسنوه؟ وهـذا الكلام، فأيـن من فيه الكفاية، والقيام عنا بفرض الكفاية؟ على أنه حرَّم النظرَ فيه متقدمو الأئمة الأعـلام، حتـى ألَّف الغـزالـي حجـةُ الإسـلام: «إلجـام العـوام عـن علـم الكلام».

والمنطق حرَّمه جمعٌ من أهل الصلاح، منهم النووي وابنُ الصلاح، وما يغني الاشتغال بالحكمة والبحث عن الأعراض والجواهر، والاستقسات والعناصر، والبسائط والمركبات، والهيولي والكليّات، والاشتغال بها سببُ ضلالة الفارابـي والرئيس، والموقع لهما في الاعتقاد الرديء والمذهب الخسيس. وقد حذَّر الأماثل من الاشتغال بعلوم الأوائل. والنحو حسن ولكن قال فيه، من يتحققه ويدريه:

---

(١) الأوفاق: من العلوم الخفية التي تعتمد على الحروف وخواصها.

[من الطويل]

وما ينفعُ الإعرابُ إنْ لم يكنْ تُقىً ... وما ضَرَّ ذا تقوى لِسانٌ مُعْجَمُ

وحديث: «وإن من البيان لسحرًا»، يحتمل القدح، كما يحتمل المدح.

والطب وإن كان حقًّا فقد دخله التدليس، وكثر فيه التمويه والتلبيس. والطبيب الحاذق لا يقدر أن يدفع عن نفسه العلل، فهو إذًا سواء والهَمَل[1]. قال المتنبي: [من السريع]

يموتُ راعي الضأنِ في جَهلِهِ ... موتَةَ جالينوسَ في طِبِّهِ

[وقال][2] غيره في معناه: [من الخفيف]

ما أفاد الرئيسَ معرفةُ الطـ ... ـبِّ ولا حُكْمُهُ على النَّيِّراتِ

ما شَفَاهُ الشفاءُ مِنْ عِلَّةِ المو ... تِ ولم يُنْجِهِ كتابُ النَّجاةِ

ونظم الشعر، كاسد السعر. ومن جعله حرفةً ومكسبةً، كان للفقر والحرمان مجلبة. وسيلة التكفُّف، وسبب النقصان والتخلُّف. وحرفة الأدب بئس الاحتراف، وهي لعمر أبيك حرفة عن الخير أي انحراف. ولذا قال من قال: [من الكامل]

قالوا: تركتَ الشعرَ، قلتُ: ضرورةً
بابُ السماحةِ والملاحةِ مُغْلَقُ

خَلَتِ الديارُ فلا كريمٌ يُرْتَجى
مِنْهُ النوالُ ولا مليحٌ يُعْشَقُ

---

(١) الهَمَل: المهمل المتروك ليلاً ونهارًا بلا رعاية ولا عناية.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

حتى صار حال الأديب مثلاً في الضعف والضيق، وقول العاملي في وصف نساء هواه به حقيق: [من الرجز]

أَضيَقُ مِنْ عَيْشِ الأديبِ ثَغْرُها أَضْعَفُ مِنْ حَالِ الأريبِ خَصْرُها

ومع هذا كله فَهَبْكَ أتقنتَ جميعَ العلوم، ووُفِّقْتَ في المنطوق منها والمفهوم. وخرجت في التفسير عن النظير، وبلغت في الحديث والفقه نهاية التحرير. وأحكمت الفروع والأصول، وأحطت بالمنقول والمعقول. وحصل لك من الأذواق والمعارف، ما تُفَكُّ به الفصوصُ والعوارف. وَفُقْتَ القاضي والأستاذ في الكلام، وقهرت بحذقك عبدَ الجبّار والعلّافَ والنظّام. وفي النحوِ ابني مالك وهشام. وأتقنت في التصريف الشافية، ولم يُفْتك تحقيقاتُ شروحِ الكافية. ورقيت في السُّلَّم المرونق، أعلى درجات سماء علم المنطق. وقرأتَ في البلاغة المفتاحَ والإيضاح، وزفَّت إليك عروسُ الأفراح. وأخذت اللغة عن الجوهري والمجد، وشافهت في البيان السيد والسَّعد. ووصلتَ إلى أصول ابني السبكي والحاجب، بلا مانع لك عنها ولا حاجب، والحكمةَ عن الرئيس والحفيد، والإنشاءَ والترسُّلَ عن الفاضل وعبد الحميد وابن العميد، والأدبَ عن الحريري، ذي النسج البديع الحريري. وفي التاريخ الكامل ويتيمة الدهر، وديوان العبر ودمية القصر، ونفح الطيب، وإحاطة لسان الدين ابن الخطيب. وفي الجغرافية تقويم البلدان. وفي الهيئة الجغميني ذا الإتقان. وجوَّدت بالطَّيِّبة والحِرْز، وفككْت كلَّ طِلَّسْم ورمز. ما غلت لك قيمة، وما كانت سيرتُكَ إلاَّ غيرَ مستقيمة. فإذا

كانت هذه مهماتِ الفنون، مَنْ أحرزها رجع بصفقة المغبون. فما أنشد السعد لنفسه في المطوَّل، هو الحق الذي لا شبهة فيه فعليه المعوَّل، وهو قوله: [من الطويل]

طويتُ بإحرازِ الفنونِ وَنَيْلِها رداءَ شبابي، والجنونُ فنونُ
فحينَ تعاطيتُ الفنونَ وحَظَّهَا تبيَّنَ لي أنَّ الفنونَ جنونُ

وهَبْكَ صرت العلاَّمةَ الثاني، ما بلغت الأماني. فسلِّم لي في سلطاني، فالزمان زماني. والناسُ خُدَّامي، والدهرُ عبدي وغلامي. وقد آن أن ترجع من حيثُ أتيت، وتموت كما كنت من قبل حييت. وأنا نزلت إلى الأرض في هذه الساعة، وعلى أبنائي تقوم الساعة. وليت شعري ماذا ينفعك ذكرُك السالفين من الأعلام، والمتقدِّمين من صالحي ملوك الإسلام. فرضي الله عن أولئك السلاطين، ورحم برحمته الواسعة ميامين السلاطين. تلك أمة قد خلت، ورسومٌ درسَتْ وعَفَت.

فهل بذكرهم ما مضى يُعاد، من رونق الأموي وبهجة الأزهري ومسجد قرطبة وفخامة الزيتونة وضخامة القرويين وشهرة المدارس الثمان ونظَّامية بغداد؟! . هيهات ما مضى فات، إن الفتى من يقولُ ها أنا ذا لا من يفتخر بالرُّفات. مضى والله الذين كانوا يجِلّون العلم ويكرمون العلماء ويجيزونهم على التصانيف، ويبذلون لهم الرغائب ويمنحونَهم التشاريف. أما الآن فقد صار التصنيف مسخرة، لا مفخرة. والتحقيق مثلبة، لا منقبة. فسلِّم لِتسلم، ولا تعد تتكلَّم. وعلى ربك فتوكَّل، فالبلاء بالمنطق موكَّل.

* * *

فلمَّا طالت بينهما المشاتَمة، وكاد الأمر يفضي إلى المضاربة والملاكمة. قام حينئذٍ الجميل الأوصاف، حلية المتقين والأشراف، المعروف بالإنصاف. فقال:

أيُّها الخصمان، دعا الشَّنَآن[1]. واتركا اللَّجاج، ولا تطيلا الحِجاج. وأنتما المتعاقبان على نوع الإنسان، والوصفان له اللازمان. إن فقد هذا وجد ذاك، فبينكما بهذا المعنى اشتراك. وكلاكما من آثار القدرة، وبدائع الفطرة. وقد اقتضت الإرادة الأزليّة أن يكون العالَمُ على هذا النظام: جهلاء وأعلام. فلو كان الناس علماء كلهم فمن ذا يقوم بالمهن، أو جهلاء كلهم فمن ذا الذي يحفظ الشرائع والسنن؟!.

وليست بينكما مضاددة، ولا كبير معاندة، بل بينكما تقابل العَدَم والمَلَكة، فاحذرا الهَلَكة وسوءَ المَلَكة، فالوفاق سكن إن شاء الله بينكما بركة.

وأنا أقضي بينكما بقضاءٍ فصل، وكلام جزل. فخيرُكما العالم العامل، ثم يليه المسترشد الجاهل. ولا خيرَ في غير ذين، من كلا الصنفين[2].

فانقضى الكلام، وافترقوا بسلام. وخُتمت المقامة، بحمد أهل الجنة في دار المقامة. والصلاة والسلام على الفاتح الخاتم، وآله وصحبه وهي أحسن الخواتم. والغرضُ من تلفيق هذه الكَلِم، ونظمها في سمط

---

(١) الشنآن: البغض.

(٢) في هذا الكلام نظر! فكم بين العالم والجاهل من بون شاسع! وربنا سبحانه يقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

الحِكَم ــ والله أعلم بالنيَّات ــ إيقاظُ العزائم وتحريكُ الهِمَم. ختامَ سنةِ أربعَ عشرةَ وثلاثمائة وألف رابع الحجة، جعلها الله لمنشئها وقارئها وكاتبها وسائر من يعتني بها حُجَّة. انتهى.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

* * *